ومدح القسم الثاني يكون بما يضاهي طريقة أهله في الإقدام والفتك والتشمير والجلد والتيقظ والصبر ، مع التخرّق والسماحة ، وقلة الاكتراث للخطوبة الملمَّة[١] . والتقابل الدلالي يقتضي أن يكون الهجاءُ مواجهًا للمديح ؛ ولذا كان الإكثار من أضداد المديح في الشعر أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلَّة أصناف الأهاجي فيها وكثرتها[٢] . وجماع القول في ذلك « أنه متى سُلِب المهجوُّ أموراً لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبًا في الهجاء ، مثل أن يُنْسَب إلى أنه قبيح الوجه ، أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم ، أو مقتِّر ، أو معسِر ، أو من قوم ليسوا بأشراف ، إذا كانت أفعاله في نفسه جميلة ، وخصاله كريمة نبيلة ، أو يكون أبواه مخطئين إذا كان مصيبًا ، أو غويين إذا وجد رشيداً سديداً ، أو بقلَّة العدد ، إذا كان كريمًا ، أو بعدم النظار إذا كان راجحًا شهماً .»[٣]

ويضع أبو عمرو بن العلاء حدا فاصلا بين الهجاء والإفحاش بقوله : خَيْر الهجاء ما تنشده العذراءُ في خِدْرها فلا يقبح بمثلها ، نحو قول أوْس :

إذا ناقَةٌ شَدَّتْ بِرَحْلٍ وَنَمْرَقٍ إلى حَيِّكُم بَعْدي فَضَلَّ ضَلالُها[٤]

وتتنوع الوسائلُ التركيبية لإفراز دلالة الهجاء ، فيرى يونُس بنُ حبيب أن أشدَّ الهجاء ، الهجاء بالتفضيل ؛ ولذا فإن عمر بن الخطاب حذَّر الحُطَيْئة من الهجاء المقذِع الذي يقول فيه إن هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف[٥] . ويرى خلف الأحمر أن أشدَّ الهجاء أعفُّه وأصدقه[٦] .

أما صاحب الوساطة فيرى أن أبلغ الهجو « ما جرى مجرى الهزل

---

(١) قدامة : نقد الشعر ، ص ٨٢–٨٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .